

٢٣ - سورة المؤمنون

مكية وآياتها ثمانى عشرة ومائة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَائِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ يَفْرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ غَيْرِ مَلْهُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتغى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ زَعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَرِيمُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرُدُّونَ الْفِتْرَةَ حَيْثُ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾

روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل، فلبثنا ساعة، فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا»، ثم قال: «لقد أنزل عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة» ثم قرأ ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ حتى ختم العشر^(١). وقال النسائي في تفسيره عن يزيد بن بابنوس، قال: قلنا لعائشة أم المؤمنين: كيف كان خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن، فقرأت: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ حتى انتهت إلى: «والذين هم على صلواتهم يحافظون» قالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ. وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء، ولبنة من ياقوتة حمراء، ولبنة من زبرجدة خضراء، ملاطها المسك، وحصاؤها اللؤلؤ، وحشيشها الزعفران، ثم قال لها: انطقي، قالت: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾، فقال الله: وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل»؛ ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ أي قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف «الذين هم في صلواتهم خاشعون» قال ابن عباس: «خاشعون» خائفون ساكنون، وعن علي الخشوع خشوع القلب، وقال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخفضوا الجناح. وقال محمد بن سيرين: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة فلما نزلت هذه الآية: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ الذين هم في صلواتهم خاشعون» خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم، والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقرّة عين؛ كما قال النبي ﷺ: «حبّ إليّ الطيب والنساء، وجعلت قرّة عيني في الصلاة»^(٣) وكان رسول الله ﷺ يقول: «يا بلال، أرحنا بالصلاة»^(٤).

وقوله تعالى: «والذين هم عن اللغو معرضون» أي عن الباطل وهو يشمل الشرك كما قاله بعضهم، والمعاصي كما قاله آخرون، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال كما قال تعالى: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾، قال قتادة: أتاهم الله من أمر الله ما وقفهم عن ذلك، وقوله: «والذين هم للزكاة فاعلون»

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذي والنسائي.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا ورواه الحافظ البزار والطبراني بنحوه.

(٣) الحديث أخرجه الإمام أحمد والنسائي عن أنس بن مالك مرفوعاً.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

الأكثر على أن المراد بالزكاة ههنا زكاة الأموال مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة، والظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة، قال تعالى في سورة الأنعام وهي مكية: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾؛ وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة ههنا زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ * وقد خاب من دسائها، وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال، فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يفعل هذا وهذا والله أعلم. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ أي والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا ولواط، لا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم، أو ما ملكت أيمانهم من السراري، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج، ولهذا قال: ﴿فإنهم غير ملومين﴾ * فمن ابتغى وراء ذلك﴾ أي غير الأزواج والإماء ﴿فأولئك هم العادون﴾ أي المعتدون. وقد استدل الإمام الشافعي رحمه الله ومن وافقه على تحريم الاستمناة باليد بهذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ قال: فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين، وقد قال الله تعالى: ﴿فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أي إذا أؤتمنوا لم يخونوا بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي يواظبون عليها في مواقيتها كما قال ابن مسعود: سألت رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها» قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين»، قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»^(١)، وفي «مستدرک» الحاكم قال: «الصلاة في أول وقتها»، وقال ابن مسعود ومسروق في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يعني مواقيت الصلاة، وقال قتادة: على مواقيتها وركوعها وسجودها، وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة واختتمها بالصلاة، فدل على أفضليتها كما قال رسول الله ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن». ولما وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال: ﴿أولئك هم الوارثون﴾ * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾، وثبت في «الصحيحين»: «إذا سألت الله الجنة فاسأله الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن». وقال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿أولئك هم الوارثون﴾»^(٢). وقال مجاهد: ما من عبد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار، فأما المؤمن فيبني بيته الذي في الجنة، ويهدم بيته الذي في النار، وأما الكافر فيهدم بيته الذي في الجنة، ويبني بيته الذي في النار، فالمؤمنون يرثون منازل الكفار لأنهم أطاعوا ربهم عز وجل بل أبلغ من هذا أيضاً، وهو ما ثبت في «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقال هذا فكاكك من النار»، فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بردة بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات أن أباه حدثه عن رسول الله ﷺ بذلك، قال: فحلف له^(٣). قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً﴾، وكقوله: ﴿وتلك الجنة التي أورتهموها بما كنتم تعملون﴾ وقد قال مجاهد: الجنة هي الفردوس، وقال بعض السلف: لا يسمى البستان الفردوس إلا إذا كان فيه عنب، فالله أعلم.

(١) أخرجه في الصحيحين.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه مسلم عن أبي بردة عن أبيه مرفوعاً.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَكِينٍ ﴿١٤﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّظْفَةَ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْمَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَنِيْتُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُعْتَبُونَ ﴿١٧﴾﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم عليه السلام خلقه الله من صلصال من حمإ مسنون، وقال ابن عباس ﴿من سلالة من طين﴾ قال: من صفوة الماء، وقال مجاهد: من سلالة أي من مني بني آدم، وقال ابن جرير: إنما سمي آدم طيناً لأنه مخلوق منه، وقال قتادة: استل آدم من الطين، وهذا أظهر في المعنى وأقرب إلى السياق، فإن آدم عليه السلام خلق من طين لازب، وهو الصلصال من الحمإ المسنون، وذلك مخلوق من التراب، كما قال تعالى: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تتشرون﴾، وقال النبي ﷺ: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك»^(١). ثم جعلناه نطفة ﴿هذا الضمير عائد على جنس الإنسان، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾ أي ضعيف كما قال: ﴿الم نخلقكم من ماء مهين﴾ فجعلناه في قرار مكين ﴿يعني الرحم معد لذلك مهياً له، ﴿إلى قدر معلوم فقدرنا فتعم القادرون﴾ أي مدة معلومة وأجل معين، حتى استحکم ونقل من حال إلى حال وصفة إلى صفة، ولهذا قال ههنا ﴿ثم خلقنا النطفة علقة﴾ أي ثم صيرنا النطفة وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل وهو ظهره، وترائب المرأة وهي عظام صدرها ما بين الترقوة إلى السرة، فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة، قال عكرمة: وهي دم ﴿فخلقنا العلقة مضغة﴾ وهي قطعة كالبيضة من اللحم لا شكل فيها ولا تخطيط ﴿فخلقنا المضغة عظماً﴾ يعني شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها. وفي الصحيح: «كل جسد ابن آدم يبلى إلا عَجَب^(٢) الذَّنْب، منه خلق وفيه يركب». ﴿فكسونا العظام لحماً﴾ أي جعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه، ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ أي ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار خلقاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحرارة واضطراب ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾. عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إذ أتت على النطفة أربعة أشهر بعث الله إليها ملكاً فنفخ فيها الروح في ظلمات ثلاث، فذلك قوله: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ يعني نفخنا فيه الروح، وقال ابن عباس: يعني نفخنا فيه الروح^(٣)؛ واختاره ابن جرير، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾: يعني ننقله من حال إلى حال، إلى أن خرج طفلاً، ثم نشأ صغيراً، ثم احتلم، ثم صار شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً، ثم هرمأ، وفي الصحيح: «إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: رزقه وأجله وعمله وهل هو شقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها»^(٤).

وقال عبد الله بن مسعود: إن النطفة إذا وقعت في الرحم طارت في كل شعر وظفر، فتمكث أربعين

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح.

(٢) ما استدق في مؤخره.

(٣) وكذا روي عن أبي سعيد الخدري، ومجاهد، وعكرمة، والشعبي، والضحاك، والحسن البصري.

(٤) أخرجه في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ورواه الإمام أحمد.

يوماً، ثم تنحدر في الرحم فتكون علقه^(١١). وفي الصحيح: «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين ليلة فيقول يا رب ماذا؟ شقي أم سعيد، أذكر أم أنثى؟ فيقول الله فيكتبان، ويكتب عمله وأثره ومصيبته ورزقه، ثم تطوى الصحيفة فلا يزداد على ما فيها ولا ينقص^(١٢). وروى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله وكل بالرحم ملكاً فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقه، أي رب مضغة، فإذا أراد الله خلقها قال: أي رب ذكر أو أنثى؟ شقي أو سعيد؟ فما الرزق والأجل؟ قال: فذلك يكتب في بطن أمه^(١٣). وقوله: «فتبارك الله أحسن الخالقين»: يعني حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النطفة من حال إلى حال، ومن شكل إلى شكل، حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوي الكامل الخلق، قال: «فتبارك الله أحسن الخالقين»، وقوله: «ثم إنكم بعد ذلك لميتون» يعني بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت، «ثم إنكم يوم القيامة تبعثون» يعني النشأة الآخرة، «ثم الله ينشئ النشأة الآخرة» يعني يوم المعاد، وقيام الأرواح إلى الأجساد، فيحاسب الخلاق، ويوفي كل عامل عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْفَلَاقِ غَافِلِينَ﴾ (١٧)

لما ذكر تعالى خلق الإنسان عطف بذكر خلق السموات السبع، وكثيراً ما يذكر تعالى خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان كما قال تعالى: «لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس»، وقوله: «سبع طرائق» قال مجاهد: يعني السموات السبع وهذه كقوله تعالى: «تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن»، «ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً»، «الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً»، وهكذا قال ههنا «ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين» أي أنه سبحانه لا يحجب عنه سماء ولا أرض، ولا جبل إلا يعلم ما في وعره، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والأشجار، «وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين».

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْ فِي الْأَرْضِ الْوَالِدَاتُ وَالْوَالِدَاتُ لَرَبِّهِنَّ جِنَّةً مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبُ لَكُمْ فِيهَا فَوْرَكُهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (١٨) ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهَبِ وَسَبْغٌ لِّالْكَلْبِ ۚ وَلَئِنْ لَّكَ فِي الْأَنْثَمِيمِ لَبَيْرَةٌ تُسْقِيكَ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنبَغٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (١٩) ﴿وَعَلْبًا وَعَلَى الْفَلَاقِ تُسْمَلُونَ﴾ (٢٠)

يذكر تعالى نعمه على عبده التي لا تعد ولا تحصى في إنزاله القطر من السماء بقدر، أي بحسب الحاجة لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضي التي تحتاج ماء كثيراً لزرعها ولا تحتمل دمتها إنزال المطر عليها يسوق إليها الماء من بلاد أخرى، كما في أرض مصر، ويقال لها الأرض الجرز يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها، فيأتي الماء يحمل طيناً أحمر، فيسقي أرض مصر، ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه، لأن أرضهم سباح يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور، وقوله: «فأسكنها في الأرض» أي جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابلية إليه، تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى، وقوله: «وإننا على لقادرون» أي لو

(١) رواه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود موقوفاً.

(٢) الحديث رواه مسلم والإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفاري مرفوعاً.

(٣) الحديث أخرجه في الصحيحين ورواه الحافظ البزار واللفظ له.

شئنا أن لا تمطر لفلعنا، ولو شئنا أذى لصرفناه عنكم إلى السباخ والبراري والغفار لفلعنا، ولو شئنا لجعلنا أجاجاً لا ينتفع به لشرب ولا لسقي لفلعنا، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفلعنا، ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم المطر من السحاب عذباً فراتاً زلالاً، فيسكنه في الأرض ويسلكه ينابيع في الأرض، فيفتح العيون والأنهار، ويسقي به الزروع والشمار، تشربون منه ودوابكم وأنعامكم، وتغتسلون منه وتطهرون منه وتنظفون، فله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ يعني فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء جنات أي بساتين وحدائق ﴿ذَاتٍ بَهِجَةٍ﴾ أي ذات منظر حسن، وقوله: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أي فيها نخيل وأعناب، وهذا ما كان يألف أهل الحجاز ولا فرق بين الشيء وبين نظيره، وكذلك في حق كل أهل إقليم عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره، وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهَ كَثِيرَةٌ﴾ أي من جميع الثمار، كما قال: ﴿هَنِيئٌ لَّكُمْ بِهِ الزَّرْعُ وَالزَّيْتُونُ وَالنَّخِيلُ وَالْأَعْنَابُ وَمِن كُلِّ الشَّمْرَاتِ﴾، وقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ معطوف على شيء مقدر، تقديره: تنظرون إلى حسنه ونضجه ومنه تأكلون، وقوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ يعني الزيتون، والطور هو الجبل، وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن عري عنها سمي جبلاً لا طوراً والله أعلم. و﴿طُورِ سَيْنَاءَ﴾ هو طور سينين، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون، وقوله: ﴿هَنِيئٌ بِالذَّهْنِ﴾ أي تبتت الدهن، كما في قول العرب: ألقى فلان بيده أي يده، ولهذا قال: ﴿وَصَيِغٌ﴾ أي آدم قاله فتادة ﴿لِلْكَالِينِ﴾ أي فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ، قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة»^(١). وروى عبد بن حميد في «مسنده» عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «اتدموا بالزيت وادهنوا به، فإنه يخرج من شجرة مباركة». وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ نَّسِيكُم مِّمَّا فِي بَطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ * وعليها وعلى الفلك تحملون ﴿يَذُكَّرُ تَعَالَى مَا جَعَلَ لَخَلْقِهَا فِي الْأَنْعَامِ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَشْرَبُونَ مِنَ الْبَائِطِ الْخَارِجَةِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ وَيَأْكُلُونَ مِنْ حَمَلَانِهَا، وَيَلْبَسُونَ مِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا، وَيُرْكَبُونَ ظَهْرَهَا، وَيَحْمَلُونَهَا الْأَحْمَالَ الثَّقَالَ إِلَى الْبِلَادِ النَّائِيَةِ عَنْهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالغِيَةِ إِلَّا نَفَسًا ظَنِينًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَكُمْ فَجِئْتُمْ بِهَا بِرُكُوبٍ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ * ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴿.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِذْ قَامَ قَوْمَهُ فَقَالَ بِقَوْمِهِمْ عَبِدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٢٣) ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَوَشَاءَ اللَّهُ لَآتِيَنَّكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ بِهَا فِي آيَاتِنَا الْأُولَى﴾ (٢٤) ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يَدْعُوهُ جِنَّةً فَمَا تَتَّبِعُونَ﴾ (٢٥) ﴿حَقٌّ جِبِينٌ﴾.

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام حين بعثه إلى قومه، لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي ألا تخافون من الله في إشراككم به؟ فقال الملأ - وهم السادة والأكابر منهم - ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ يعنون برفع عليكم ويتعاضم بدعوى النبوة وهو بشر مثلكم فكيف أوحى إليه دونكم؟! ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي لو أراد أن يعث نبياً لبعث ملكاً من عنده ولم يكن بشراً ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أي ببعثه البشر ﴿فِي آيَاتِنَا الْأُولَى﴾ يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم في الدهور الماضية، وقوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يَدْعُوهُ جِنَّةً﴾ أي مجنون فيما يزعمه من أن الله أرسله إليكم، واختصه من بينكم بالوحي ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي انتظروا به ريب المنون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه.

(١) أخرجه الإمام أحمد عن مالك بن ربيعة الساعدي مرفوعاً.

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا عَمِلُوا إِنَّهُمْ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَعْيُنُنَا وَمَنْ لَمَلْنَا فِي الْغَيْبِ فَسَوْفَ نَعْتَبُهَا وَنَنْصُرَنَّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْثَرًا ﴿٢٨﴾﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام أنه دعا ربه ليستنصره على قومه كما قال تعالى مخبراً عنه في الآية الأخرى: ﴿فدعا ربه أني مغلوب فانتصر﴾، وقال ههنا: ﴿رب انصرنني بما كذبتني﴾، فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعة السفينة وإحكامها وإتقانها، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، أي ذكرًا وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله ﴿إلا من سبق عليه القول منهم﴾ أي من سبق عليه القول بالهلاك، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته والله أعلم، وقوله: ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مفروقون﴾ أي عند معاينة إنزال المطر العظيم لا تأخذك رافة بقومك وشفقة عليهم، وطمع في تأخيرهم لعلمهم يؤمنون، فإني قد قضيت أنهم مفروقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان، وقد تقدمت القصة مبسوطة في سورة هود بما يغني عن إعادة ذلك ههنا، وقوله: ﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين﴾، كما قال: ﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون﴾ لتستروا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾، وقد امتثل نوح عليه السلام هذا، كما قال تعالى: ﴿وقال اركبوا فيها بسم الله مخزها ومرساها﴾، فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه ﴿إن في ذلك لآيات﴾ أي إن في هذا الصنيع - وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين - آيات، أي لحججاً ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاءوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء قادر على كل شيء عليم بكل شيء، وقوله: ﴿وان كنا لمعتلين﴾ أي لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين.

﴿ قُرْآنًا مِّن قَبْلِهِ قُرْآنًا مَّعْرُوبًا ﴿٢٩﴾ فَاسْمَعْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴿٣٠﴾ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كُفْرُهُمْ وَلَٰكِن يُضِلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ النُّجُومِ سَاقِطًا يُذَكَّرْنَ ﴿٣٣﴾ وَنَحْنُ نَعْلَمُ غَيْبُهُمْ فَسَوْفَ يُعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ النُّجُومِ سَاقِطًا يُذَكَّرْنَ ﴿٣٥﴾ وَنَحْنُ نَعْلَمُ غَيْبُهُمْ فَسَوْفَ يُعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ النُّجُومِ سَاقِطًا يُذَكَّرْنَ ﴿٣٧﴾ وَنَحْنُ نَعْلَمُ غَيْبُهُمْ فَسَوْفَ يُعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي ﴿٤٠﴾﴾

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين، قيل: المراد بهم عاد، فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم. وقيل: المراد بهؤلاء ثمود، لقوله: ﴿فأخذتهم الصيحة بالحق﴾، وأنه تعالى أرسل فيهم رسولا منهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فكذبوه وخالفوه وأبوا اتباعه لكونه بشراً مثلهم، وكذبوا بآيات الله، وقالوا: ﴿أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون﴾ * هيهات هيهات لما توعدون﴾ أي بعد ذلك، ﴿إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً﴾ أي فيما جاءكم به من الرسالة والإخبار بالمعاد، ﴿وما نحن له بمؤمنين﴾ * قال رب انصرنني بما كذبتني﴾ أي استفتح عليهم الرسول واستنصر ربه عليهم فأجاب دعاه، ﴿قال عما قليل ليصبحن نادمين﴾ أي بمخالفتك وعنادك فيما جنتهم به، ﴿فأخذتهم الصيحة بالحق﴾ أي وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم، والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوي الباردة تدمر كل شيء بأمر ربها، ﴿فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾، وقوله: ﴿فجعلناهم غثاء﴾ أي صرعى هلكى كغثاء السيل وهو الشيء الحقيقير التافه الهالك الذي لا ينتفع بشيء منه، ﴿فبعثنا للقوم الظالمين﴾، كقوله:

﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ أي بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم .

﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرَ ﴿٤٧﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَفْهِرُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا تَرَا كُلًّا مَّا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَأَتَيْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ آيَاتٍ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين ﴾ أي أمماً وخلائق ﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ يعني بل يؤخذون على حسب ما قدر لهم تعالى في كتابه المحفوظ وعلمه، قبل كونهم أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، ﴿ ثم أرسلنا رسولنا تترى ﴾ قال ابن عباس : يعني يتبع بعضهم بعضاً، وهذا كقوله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطواغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ ، وقوله : ﴿ كلما جاء أمة رسولها كذبو ﴾ يعني جمهورهم وأكثرهم، كقوله تعالى : ﴿ يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ ، وقوله : ﴿ فأتينا بعضهم بعضاً ﴾ أي أهلكتناهم، كقوله : ﴿ وكم أهلكتنا من القرون من بعد نوح ﴾ ، وقوله : ﴿ وجعلناهم آيات ﴾ أي أخباراً وأحاديث للناس، كقوله : ﴿ فجعلناهم آيات وأحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾ .

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٥٠﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٥١﴾ فَقَالُوا أَنزَلْنَا إِلَهَ الْبَشَرِ مِنَّا وَفَرُّوا مِنَّا وَكَلَّمُوا مَرْيَمَ وَكَلَّمْنَاهَا وَإِلَىٰ آلِ مُوسَىٰ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى عليه السلام وأخاه هارون إلى فرعون وملته، بالآيات والحجج الدامغات والبراهين القاطعات، وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما والالتقاد لأمرهما، لكونهما بشرين كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر، تشابهت قلوبهم . فأهلك الله فرعون وملاه وأغرقهم في يوم واحد أجمعين، وأنزل على موسى الكتاب - وهو التوراة - فيها أحكامه وأوامره ونواهيها، وذلك بعد أن قصم الله فرعون والقبط، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكتنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلمهم يتذكرون ﴾ .

﴿ وَجَعَلْنَا لِمَرْيَمَ وَأُمَّهَا آيَةً وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليهما السلام أنه جعلهما آية للناس، أي حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى . وقوله : ﴿ وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾ قال ابن عباس : الربوة المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات، ﴿ ذات قرار ﴾ يقول ذات خصب ﴿ ومعين ﴾ يعني ماء ظاهراً^(١)، وقال مجاهد : ربوة مستوية . وقال سعيد بن جبيرة ﴿ ذات قرار ومعين ﴾ : استوى الماء فيها، وقال مجاهد وقتادة : ﴿ ومعين ﴾ الماء الجاري، ثم اختلف المفسرون في مكان هذه الربوة؟ فقال سعيد بن المسيب : هي دمشق، وعن ابن عباس ﴿ ذات قرار ومعين ﴾ قال : أنها دمشق، وقال مجاهد ﴿ وأويناهما إلى ربوة ﴾ قال : عيسى ابن مريم وأمه حين أويا إلى غوطة دمشق وما حولها، وقال عبد الرزاق عن أبي هريرة قال : هي الرملة من فلسطين، وأقرب الأقوال في ذلك ما رواه العوفي عن ابن عباس قال : المعين الماء الجاري وهو النهر الذي قال الله تعالى : ﴿ قد جعل ربك تحتك سريان ﴾ ، وكذا قال

(١) وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبيرة وقتادة .

الضحك وفتادة: إلى ربوة ذات قرار ومعين، هو بيت المقدس، فهذا والله أعلم هو الأظهر، لأنه المذكور في الآية الأخرى، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وهذا أولى ما يفسر به، ثم الأحاديث الصحيحة، ثم الآثار.

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَجَدَتْ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْنُوهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْفِتْنَةِ بَلْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ۞

يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء عليهم السلام بهذا أتم القيام، وجمعوا بين كل خير قولاً وعملاً ودلالة ونصحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً، قال الحسن البصري في قوله: ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ﴾ قال: أما والله ما أركم بأصفركم ولا أحمركم ولا حلوكم ولا حامضكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه. وقال سعيد بن جبيرة والضحاك ﴿ كلوا من الطيبات ﴾: يعني الحلال، وكان عيسى ابن مريم يأكل من غزل أمه، وفي الصحيح: «وما من نبي إلا رعى الغنم» قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم وأنا كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة»، وفي الصحيح: «إن داود عليه السلام كان يأكل من كسب يده»، وقد ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾، وقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك؟!»^(١) وقوله: ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ أي دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد، وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولهذا قال: ﴿ وأنا ربيكم فاتقون ﴾، وقوله: ﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبور ﴾ أي الأمم التي بعثت إليهم الأنبياء ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ أي يفرحون بما هم فيه من الضلال لأنهم يحسبون أنهم مهتدون، ولهذا قال متهدداً لهم ومتوعداً ﴿ فذرهم في غمرتهم ﴾ أي في غيهم وضلالهم ﴿ حتى حين ﴾ أي إلى حين هلاكهم، كما قال تعالى: ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويداً ﴾، وقال تعالى: ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أيحسبون أننا نمدهم به من مال وبنين ﴾ نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون يعني أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد، لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا، كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم ﴿ نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾ لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نعمل بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاء، ولهذا قال: ﴿ بل لا يشعرون ﴾، كما قال تعالى: ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ إنما نعطي لهم ليزدادوا إثماً ﴾، وقال تعالى: ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرىكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً ﴾ الآية، والآيات في هذا كثيرة. قال فتادة: مكر والله بالقرم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفس محمد بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه» قالوا: وما بوائقه يا رسول الله؟ قال: «غشمه وظلمه، ولا يكسب عبد مالاً من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يتركه خلف

(١) رواه مسلم والترمذي والإمام أحمد واللفظ له.

ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السیء بالسیء، ولكن يمحو السیء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث» (١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ رَاحَةٌ إِنَّ رَبَّهُمْ لَرَحِيمٌ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يَسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَاهُونَ ﴿٦١﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ أي هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله خائفون منه، وجلون من مكروه بهم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المناقق جمع إساءة وأمناء، ﴿والذين هم بآيات ربهم يؤمنون﴾ أي يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخباراً عن مريم عليها السلام: ﴿وصدقت بكلمات ربها وكتبه﴾ أي أيقنت أن ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه، وما شرعه الله فهو إن كان أمراً فمما يحبه ويرضاه، وإن كان نهياً فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حق، كما قال الله: ﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾ أي لا يعبدون معه غيره بل يوحدهونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله، وأنه لا نظير له ولا كفاء. وقوله: ﴿والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجله أنهم إلى ربهم راجعون﴾ أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما قال الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجله هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «لا يا بنت الصديق! ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل» (٢). ﴿أولئك يسارعون في الخيرات﴾، وقد قرأ آخرون هذه الآية «والذين يأتون ما أتوا وقلوبهم وجله»: أي يفعلون ما يفعلون وهم خائفون، وروي هذا مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قرأها كذلك، والمعنى على القراءة الأولى وهي قراءة الجمهور السبعة وغيرهم أظهر؛ لأنه قال: ﴿أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾ فجعلهم من السابقين، ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك أن لا يكونوا من السابقين بل من المقتصدین أو المقصرين، والله أعلم.

﴿وَلَا يَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أَلَّذِينَ كُنْتُمْ يَقُولُونَ أَلَمْ نَأْمُرْكُمْ بِهَذَا وَلَمْ نَأْمُرْكُمْ بِدُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عِشْرُونَ ﴿٦٢﴾ حَقَّ لَنَا أَلْنَاكُمْ مُّزْفَرِينَ بِالْمَذَابِ إِذَا هُمْ يَحْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ لَا تَجْعَلُوا أَيْدِيَكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَتَنْسَوْنَ ﴿٦٤﴾ قَدْ كَانَتْ يَدَايُنَا غَلِيظَةً عَلَىٰ اتِّقَابِكُمْ لَا تَنْصُرُونَ ﴿٦٥﴾ سِيرًا تَهَجَّرُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا، أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها؛ أي إلا ما تطيق حمله والقيام به، وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم، التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء، ولهذا قال: ﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق﴾ يعني كتاب الأعمال، ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي لا يبخسون من الخير شيئاً، وأما السبائح فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين، ثم قال منكرأ على الكفار والمشركين من قريش: ﴿هل قلوبهم في غمرة﴾ أي في غفلة وضلالة من هذا، أي القرآن الذي أنزل على رسوله ﷺ، وقوله: ﴿ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون﴾، قال ابن عباس: ﴿ولهم أعمال﴾ أي سيئة من دون ذلك يعني الشرك ﴿هم لها عاملون﴾، قال: لا بد أن يعملوها، وقال آخرون ﴿ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون﴾: أي قد كتبت عليهم أعمال سيئة لا بد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة لتحق عليهم كلمة

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند عن ابن مسعود مرفوعاً.

(٢) ورواه الترمذي وابن أبي حاتم بنحوه وقال: لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا يتقبل منهم.

العذاب^(١)؛ وهو ظاهر قوي حسن، وقد قدمنا في حديث ابن مسعود: «فوالذي لا إله غيره إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»، وقوله: ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجارون﴾ يعني حتى إذا جاء مترفيهم - وهم المنعمون في الدنيا - عذاب الله وبأسه ونقمته بهم ﴿إذا هم يجارون﴾ أي يصرخون ويستغيثون، كما قال تعالى: ﴿ذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً﴾، وقال تعالى: ﴿وكم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص﴾، وقوله: ﴿لا تجاروا اليوم إنكم منا لا تنصرون﴾ أي لا يجيركم أحد مما حل بكل سواء جارتم أو سكتم لا محيد ولا مناص ولا وزر، لزم الأمر ووجب العذاب، ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال: ﴿قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون﴾: أي إذا دعيتم أبيتم وإن طلبتم امتنعتم، ﴿ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرک به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير﴾، وقوله: ﴿مستكبرين به سامراً تهجرون﴾ الضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام: إنه سحر، إنه شعر، إنه كهانة إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة. وقيل: إنه محمد ﷺ، كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة ويضربون له الأمثال الباطلة، من أنه شاعر، أو كاهن، أو ساحر، أو كذاب، أو مجنون. وقيل المراد بقوله ﴿مستكبرين به﴾ أي بالبيت يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به، كما قال ابن عباس: إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية ﴿مستكبرين به سامراً تهجرون﴾ فقال: مستكبرين بالبيت، يقولون: نحن أهله ﴿سامراً﴾ قال: كانوا يتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه ويهجرونه^(٢).

﴿أَفَلَمْ يَذَّبُوا الْقَوْلَ إِذْ جَاءَهُمْ مَا بُرِّبَاتٍ بِآيَاتِهِمْ الْآوَّلِينَ﴾ (١٨) ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ مُنْكَرُوا﴾ (١٩) ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَآكَرَهُمْ لِحَقِّ كَرِهُوا﴾ (٢٠) ﴿وَلَوْ أَنشَأَ الْحَقُّ أُهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَنبَتْنَاهُمْ بِذُرِّيَّتِهِمْ فَأَهْزَعَنَ ذُرِّيَّتِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢١) ﴿أَمْ تَتَّخِذُهُمْ حُرْمَتَآءَ فَخْرٍ رَبِّكَ حَيْرًا وَمَوْجِزًا لِلرِّزْقِينَ﴾ (٢٢) ﴿وَلَيْكَلَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢٣) ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ﴾ (٢٤) ﴿وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ شَرِّ لَلْجِبْرِ فِي طُغْيَانِهِمْ بِعَمَهُونَ﴾ (٢٥).

يقول تعالى منكرأ على المشركين، في عدم تفهمهم للقرآن العظيم وإعراضهم عنه، مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله عليهم بقبولها، والقيام بشكرها وتفهمها والعمل بمقتضاها آتاء الليل وأطراف النهار، ثم قال منكرأ على الكافرين من قريش: ﴿أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون﴾ أي أنهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانتها التي نشأ بها فيهم، ولهذا قال (جعفر بن أبي طالب) رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة: أيها الملك إن الله بعث فينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته، وهكذا قال (المغيرة بن شعبة) لثائب كسرى حين بارزهم، وكذلك قال (أبو سفيان) لملك الروم هرقل حين سأله وأصحابه عن صفات النبي ﷺ، ونسبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا، ومع هذا لم يمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك. وقوله: ﴿أم يقولون به جنة﴾ يحكي قول المشركين عن النبي ﷺ أنه تقول القرآن أي افتراه من عنده، أو أن به جنوناً لا يدري ما يقول، وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به، وهم يعلمون بطلان ما يقولون في القرآن، وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله إن استطاعوا ولا يستطيعون أبد الأبد، ولهذا قال: ﴿بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون﴾، قال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ لقي رجلاً فقال: «أسلم» فقال الرجل: إنك لتدعوني إلى أمر أنا له كاره، فقال نبي الله ﷺ: «إن كنت كارهاً». وذكر لنا أنه لقي رجلاً فقال له: «أسلم»

(١) وروي نحو هذا عن مقاتل والسدي وابن أسلم.

(٢) أخرجه النسائي في التفسير عن ابن عباس.

فتصعده ذلك وكبر عليه، فقال له نبي الله ﷺ: «أرأيت لو كنت في طريق وعر وعر، فلقيت رجلاً تعرف وجهه وتعرف نسبه، فدعاك إلى طريق واسع سهل أكنت تتبعه؟» قال: نعم، قال: «فوالذي نفس محمد بيده إنك لفي أوعر من ذلك الطريق لو قد كنت عليه، وإني لأدعوك لأسهل من ذلك لو دعيت إليه». وقوله: «ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن» قال مجاهد والسدي: الحق هو الله عز وجل، والمراد لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى وشرع الأمور على وفق ذلك، لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن أي لفساد أهوائهم واختلافهم، كما أخبر عنهم في قولهم: «ولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم»، وقال تعالى: «قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكنم خشية الإنفاق» الآية.

ففي هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله وتدييره لخلقته تعالى وتقدس، ولهذا قال: «بل أتيناكم بذكرهم» أي القرآن «فهم عن ذكرهم معرضون»، وقوله: «أم تسألهم خرجاً» قال الحسن: أجراً، وقال قتادة: جُعلاً «فخرج ريك خير» أي أنت لا تسألهم أجره ولا جعلاً ولا شيئاً على دعوتك إياهم إلى الهدى، بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه، كما قال «قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله»، وقال: «قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين»، وقال: «اتبعوا من لا يسألكم أجراً»، وقوله: «وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم * وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون». عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكان، فقعده أحدهما عند رجليه، والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته، فقال: إن مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة، فقال: أرايتم إن أوردتكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء تتبعوني؟ فقالوا: نعم، قال: فانطلق بهم وأوردهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا، فقال لهم: ألم ألكم على تلك الحال، فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني؟ قالوا: بلى، قال: فإن بين أيديكم رياضاً أعشب من هذه، وحياضاً هي أروى من هذه، فاتبعوني، قال: فقالت طائفة: صدق والله لتبعنه، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه^(١). وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني ممسك بحجزكم هلم عن النار، هلم عن النار وتغلبوني، تتقاحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب، فأوشك أن أرسل حجزكم وأنا فرطكم على الحوض، فتردون عليّ معاً وأشتاتاً، أعرفكم بسماكم وأسماكنم كما يعرف الرجل الغريب من الإبل في إبله، فيذهب بكم ذات اليمين وذات الشمال، فأناشد فيكم رب العالمين أي رب قومي، أي رب امتي، فيقال: يا محمد إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم كانوا يمشون بعدك القهقري على أعقابهم»^(٢). وقوله: «وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون» أي لعادلون جائرون منحرفون، تقول العرب: نكب فلان عن الطريق إذا زاغ عنها، وقوله: «ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طفيانهم يعمهون» يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم، بأنه لو أزاح عنهم الضر وأفهمهم القرآن لما انقادوا له، ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطفيانهم، كما قال تعالى: «ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون» فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون لو كان كيف يكون، قال ابن عباس: كل ما فيه «لو» فهو مما لا يكون أبداً.

(١) أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس مرفوعاً.

(٢) أخرجه الحافظ الموصلي وقال علي بن المدني: هذا حديث حسن الإسناد.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَعَاذُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِنَّا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِنَّا هُمْ فِيهِ مُبَسِّئُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَ كُرْفِي الْأَرْضِ وَاللَّيْلِ حُمْشُرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَأَوْدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْ أَنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَوَعَدْنَا مَنَّا مِنْ قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب﴾ أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد، ﴿فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾ أي فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة بل استمروا على غيهم وضلالهم، ما استكانوا أي ما خشعوا ﴿وما يتضرعون﴾ أي ما دعوا، كما قال تعالى: ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم﴾ الآية. عن ابن عباس أنه قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز - يعني الوبر والدم - فأنزل الله: ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا﴾ (١)، وأصله في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استمعوا فقال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسيع يوسف». وقوله: ﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون﴾، أي حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة، فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون، فعند ذلك أبلسوا من كل خير، وأيسوا من كل راحة وانقطعت آمالهم ورجاؤهم. ثم ذكر تعالى نعمه على عباده بأن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة وهي العقول التي يذكرون بها الأشياء، ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله، وأنه الفاعل المختار لما يشاء؛ وقوله: ﴿قليلًا ما تشكرون﴾ أي ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم، ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر، في برئه الخليقة وذرته لهم في سائر أقطار الأرض، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم، ولهذا قال: ﴿وهو الذي يحيي ويميت﴾ أي يحيي الرمم ويميت الأمم، ﴿وله اختلاف الليل والنهار﴾ أي وعن أمره تسخير الليل والنهار كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، يتعاقبان لا يفتران ولا يفترقان بزمان غيرهما كقوله: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار﴾ الآية، وقوله: ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم الذي قد فهر كل شيء وخضع له كل شيء؟ ثم قال مخبراً عن منكري البعث الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين ﴿بل قالوا مثل ما قال الأولون﴾ قالوا أننا متنا وكنا تراباً وعظاماً أننا لمبعوثون﴾ يعني يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى، ﴿لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ يعنون إعادة محال إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلاقهم، وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله إخباراً عنهم ﴿أننا كنا عظاماً نخرة﴾ قالوا تلك إذا كرة خاسرة، ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم﴾ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلقه علي﴾ الآيات.

﴿قُلْ لَيْسَ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن يَدِينُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيبُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُشْعِرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَنبئْتُم بِالنَّارِ وَإِنَّهَا لَكَنُورٌ ﴿٩٠﴾﴾

يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ﴿قل لمن الأرض ومن فيها﴾ أي من مالكتها الذي خلقها، ومن فيها من الحيوانات والنباتات، والثمار وسائر صنوف المخلوقات؟ ﴿إن كنتم تعلمون﴾ سيقولون لله﴾ أي فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان ذلك ﴿قل أفلا تذكرون﴾ أنه لا تنبغي العبادة إلا للمخلوق الرازق لا لغيره، ﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم﴾ أي من هو

(١) أخرجه ابن أبي حاتم والنسائي، وأصله في الصحيحين.

خالق العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيرات، والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات؟ ومن هو رب العرش العظيم يعني الذي هو سقف المخلوقات؟ كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «شأن الله أعظم من ذلك إن عرشه على سماواته هكذا» وأشار بيده مثل القبة^(١). وفي الحديث الآخر: «ما السماوات السبع والأرضون السبع وما بينهما وما فيهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن الكرسي بما فيه بالنسبة إلى العرش كذلك الحلقة في تلك الفلاة»، عن ابن عباس: إنما سمي عرشاً لارتفاعه، وقال مجاهد: ما السماوات والأرض في العرش إلا كحلقة في أرض فلاة، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: العرش لا يقدر قدره أحد إلا الله عز وجل. ولهذا قال ههنا: «رب العرش العظيم» أي الكبير، وقال آخر السورة «رب العرش الكريم» أي الحسن البهي فقد جمع العرش بين العظمة في الاتساع، والعلو والحسن الباهر؛ قال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه، وقوله: «سيقولون لله قل أفلا تتقون» أي إذا كنتم تعترفون بأنه رب السماوات ورب العرش العظيم، أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراككم به؟

قوله: «قل من بيده ملكوت كل شيء» أي بيده الملك «ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها» أي متصرف فيها، وكان رسول الله ﷺ يقول: «لا والذي نفسي بيده»، وكان إذا اجتهد في اليمين قال: «لا ومقلب القلوب»، فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف، «وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون» كانت العرب إذا كان السيد فيهم أجار أحداً لا يخفر في جواره، وليس لمن دونه أن يجير عليه لثلاث يفتات عليه، ولهذا قال الله: «وهو يجير ولا يجار عليه» أي وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه، الذي له الخلق والأمر ولا معقب لحكمه، «لا يسأل عما يفعل وهم يسألون»؛ «سيقولون لله» أي سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له «قل فأتى تسحرون» أي فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك؟ ثم قال تعالى: «بل أتيناهم بالحق» وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك، «وإنهم لكاذبون» أي في عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك، كما قال في آخر السورة «ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه» فالمشركون إنما يفعلون ذلك اتباعاً لأبائهم وأسلانهم الحيازي الجهال كما قال عنهم «إننا وجدنا آبائنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون».

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ رِيْنٌ إِذْ لَدَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١١﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالشَّهَادَةُ فَتَعَلَّنَ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ .

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة، فقال تعالى: «ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض» أي لو قدر تعدد الآلهة، لانفرد كل منهم بما خلق، فما كان ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، غاية الكمال «ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت»، ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض، والمتكلمون عبروا عنه بدليل (التمانع) وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد فيكون محالاً؛ فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب، والآخر المغلوب ممكناً، لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً، ولهذا قال تعالى: «ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون» أي عما يقول الظالمون المعتدون في دعوهم الولد أو الشريك

(١) أخرجه أبو داود في سننه.

علواً كبيراً، ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه، ﴿فتعالى عما يشركون﴾ أي تقدس وتنزه وتعالى وعز وجل عما يقول الظالمون والمجاهدون.

﴿قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تَرَيْتَنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٦﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٧﴾ وَإِنَّا عَلِمْنَا أَنَّ نُرْيَاكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿٩٨﴾ اَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيحَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿١٠٠﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِي ﴿١٠١﴾﴾ .

يقول تعالى أمرأ نبيه محمداً ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم ﴿رب إما ترى ما يوعدون﴾ أي إن عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك فلا تجعلني فيهم؛ كما جاء في الحديث: «وإذا أردت بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون» (١). وقوله تعالى: ﴿وإنما على أن نريك ما نعدهم لقادرون﴾ أي لو شئنا لأريناك ما نحل بهم من النقم والبلاء والمحن، ثم قال تعالى مرشداً له إلى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسيء إليه ليستجلب خاطره، فتعود عداوته صداقة ويغضه محبة، فقال تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة﴾، وهذا كما قال: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾، وقوله تعالى: ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين﴾ أمره الله أن يستعيذ من الشياطين لأنهم لا تنفع معهم الحيل، ولا ينقادون بالمعروف، وفي الصحيح: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه». وقوله تعالى: ﴿وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ أي في شيء من أمري، ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور، وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح وغير ذلك من الأمور، ولهذا روي أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهرم، وأعوذ بك من الهدم، ومن الغرق، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت» (٢). وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم من الفزع: «باسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» قال: فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها في عنقه (٣).

﴿حَقِّقْ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٦﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ لَنْ يَمُرُّ بِمَيِّتٍ ﴿٩٧﴾﴾ .

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته، ولهذا قال: ﴿رب ارجعون﴾ لعلني أعمل صالحاً فيما تركت﴾ كقوله: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾، وقال تعالى: ﴿وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾، وقال تعالى: ﴿وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾ الآية، فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار، ويوم النشور ووقت العرض على الجبار، وهم في غمرات عذاب الجحيم، وقوله ههنا: ﴿كلا إنها كلمة هو قائلها﴾ كلا حرف ردع وزجر أي لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه. وقوله تعالى: ﴿إنها كلمة هو قائلها﴾ قال ابن أسلم: أي لا بد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم، ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله ﴿كلا﴾ أي سؤال الرجوع ليعمل صالحاً هو كلام منه وقول لا عمل معه، ولو رد لما عمل صالحاً ولكان يكذب في مقالته هذه، كما قال تعالى: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾. قال قتادة: والله ما

(١) أخرجه أحمد والترمذي وصححه.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه.

(٣) ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حسن غريب.

تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولا بأن يجمع الدنيا ويقضي الشهوات، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله عز وجل، فرحم الله امرأ عمل فيما يتنمناه الكافر إذا رأى العذاب إلى النار. وقال عمر بن عبد الله مولى غفرة: إذا قال الكافر رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً يقول الله تعالى: كلا كذبت، وكان العلاء بن زياد يقول: لينزلن أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله فليعمل بطاعة الله تعالى. وقال قتادة: والله ما تمنى إلا أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فانظروا أمانة الكافر المفرط، فاعملوا بها ولا قوة إلا بالله. وعن أبي هريرة قال: إذا وضع - يعني الكافر - في قبره فيرى مقعده من النار، قال: فيقول رب ارجعون أتوب وأعمل صالحاً، قال: فيقال: قد عمرت ما كنت معمراً، قال: فيضيق عليه قبره ويلتئم فهو كالمنهوش ينام ويفزع تهوي إليه هوام الأرض وحياتها وعقاربها^(١). وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ويل لأهل المعاصي من أهل القبور، تدخل عليهم في قبورهم حيات سود، أو دُهم؛ حية عند رأسه، وحية عند رجله، يقرصانه حتى يلتقيا في وسطه، فذلك العذاب في البرزخ الذي قال الله تعالى: ﴿مَنْ ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾^(٢). قال مجاهد: البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة. وقال محمد بن كعب: البرزخ ما بين الدنيا والآخرة ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم، وقال أبو صخر: البرزخ المقابر لا هم في الدنيا ولا هم في الآخرة فهم مقيمون إلى يوم يبعثون، وفي قوله تعالى: ﴿مَنْ ورائهم برزخ﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ، كما قال تعالى: ﴿مَنْ ورائهم جهنم﴾، وقال تعالى: ﴿مَنْ ورائه عذاب غليظ﴾، وقوله تعالى: ﴿إلى يوم يبعثون﴾ أي يستمر به العذاب إلى يوم البعث كما جاء في الحديث: «فلا يزال معذباً فيها» أي في الأرض.

﴿فَلَمَّا نَفَخَ فِي السُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَلْتُونَ﴾^(١١١) ﴿مَنْ نَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١١٢)
 ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾^(١١٣) ﴿تَلْفَحُ وَجوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾^(١١٤).

يخبر تعالى أنه إذا نفخ في الصور نفخة النشور، وقام الناس من القبور ﴿فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون﴾ أي لا تنفع الإنسان يومئذٍ قرابة ولا يرثي والد لولده ولا يلوي عليه، قال الله تعالى: ﴿ولا يسأل حميم حميماً يصبرونهم﴾ أي لا يسأل القريب قريبه وهو يبصره، ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره، ولو كان أعز الناس عليه في الدنيا ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة، قال الله تعالى: ﴿يوم يفر المرء من أخيه * وأمّه وأبيه * وصاحبه وبنيه﴾ الآية. وقال ابن مسعود: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد: ألا من كان له مظلمة فليجيء فليأخذ حقه، قال: فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيراً، ومصداق ذلك في كتاب الله، قال الله تعالى: ﴿إذا نفخ في الصور رسول الله ﷺ: «فاطمة بضعة مني يغظني ما يغظها وينشطني ما ينشطها، وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي وصهري»؛ وهذا الحديث له أصل في «الصحاحين»: «فاطمة بضعة مني يربيني ما يربينا ويؤذيني ما آذاها». وقد ذكرنا في مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من طرق متعددة عنه رضي الله عنه أنه لما تزوج (أم كلثوم) بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: أما والله ما بي إلا أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل سبب ونسب فإنه منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي»^(١)، وروى الحافظ ابن

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة موقوفاً.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن عائشة موقوفاً.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود.

(٤) رواه الطبراني والبخاري والبيهقي والحافظ الضياء في المختارة وذكر أنه أصدقها أربعين ألفاً إعظاماً وإكراماً.

عساكر عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري». وقوله تعالى: ﴿مَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة قال ابن عباس ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ أي الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي ثقلت سيئاته على حسناته ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ أي خابوا وهلكوا وباءوا بالصفقة الخاسرة؛ عن أنس بن مالك يرفعه قال: إن الله ملكاً موكلاً بالميزان فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتي الميزان، فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمعه الخلائق: سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خفت ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق: شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً^(١). قال تعالى: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أي ماكثون فيها دائمون مقيمون فلا يظعنون ﴿يَلْفَحُ وَجُوهُهُمُ النَّارُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَتَفْشَى وَجُوهَهُمُ النَّارُ﴾، وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وَجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ الآية. عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن جهنم لما سبق لها أهلها، تلقاهم لهبها ثم تلفحهم لفة فلم يبق لهم لحم إلا سقط على العرقوب»^(٢). وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله تعالى ﴿يَلْفَحُ وَجُوهَهُمُ النَّارُ﴾، قال: «تلفحهم لفة تسيل لحومهم على أعقابهم»^(٣). وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالْحُوتِ﴾ قال ابن عباس: يعني عابسون، وقال ابن مسعود ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالْحُوتِ﴾ قال: ألم تر إلى الرأس المشيط الذي قد بدا أسنانه وقلصت شفتاه، وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالْحُوتِ﴾ قال: «تشويه النار، فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرته»^(٤).

﴿أَلَمْ تَكُنْ مَعَنَا إِذْ تُلَقِّنُ أُولَئِكَ لِيُكْفِرُوا بِآيَاتِنَا وَيُكَذِّبُوا بِهَا فَأُولَئِكَ يَرْجِعُونَ﴾ (١١٥) ﴿قَالُوا رَبَّنَا فَلَيْتَ عَلَيْنَا لِمَا سُخِّرْنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ (١١٦) ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ (١١٧) ﴿

هذا تفريع من الله وتوبيخ لأهل النار على ما ارتكبه من الكفر والمآثم، والمحارم والعظائم التي أوبقتهم في ذلك فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مَعَنَا إِذْ تُلَقِّنُ أُولَئِكَ لِيُكْفِرُوا بِآيَاتِنَا وَيُكَذِّبُوا بِهَا فَأُولَئِكَ يَرْجِعُونَ﴾ أي قد أرسلت إليكم الرسل وأنزلت إليكم الكتب وأزلت شبهكم ولم يبق لكم حجة، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكُمُ الْحُجَّةُ عَلَى اللَّهِ فَاصْحَبُوا آلَ اللَّهِ حِجَّةً بَعْدَ الرِّسَالِ﴾، وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مَعْبُودِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، ولهذا قال: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أي قد قامت علينا الحجة ولكن كنا أشقى من أن نقاد لها ونتبعها فضلنا عنها ولم نرزقها، ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ أي ارددنا إلى الدنيا فإن عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة، كما قال: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾؟ أي لا سبيل إلى الخروج لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحده المؤمنون.

﴿قَالَ اسْكُتُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُوا﴾ (١١٨) ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَأَنْتَ خَبِيرٌ الرَّحِيمِ﴾ (١١٩) ﴿فَاغْفِرْ لَهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ حَتَّىٰ أَسْأَلُوكَ ذِكْرَهُمْ وَيُحْمَلُونَ مِنْهُمْ نُسُجُوتَهُمْ﴾ (١٢٠) ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٢١) ﴿

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار، والرجعة إلى هذه الدار. يقول: ﴿اخْسَأُوا فِيهَا﴾ أي امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء ﴿وَلَا تَكَلِّمُوا﴾ أي لا تعودوا إلى سؤالكم هذا فإنه لا جواب لكم

(١) رواه الحافظ البزار وفي إسناده ضعف.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه ابن مردويه عن أبي الدرداء.

(٤) أخرجه أحمد والترمذي، وقال الترمذي: حسن غريب.

عندي . قال ابن عباس «اخشأوا فيها ولا تكلمون» قال : هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه . وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو قال : إن أهل جهنم يدعون مالكا فلا يجيبهم أربعين عاماً ، ثم يرد عليهم إنكم ماكثون ، قال : هانت دعوتهم والله على (مالك) ورب مالك ؛ ثم يدعون ربهم فيقولون : «ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون» قال : فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين ، ثم يرد عليهم : «اخشأوا فيها ولا تكلمون» قال : فوالله ما نبس القوم بعدها بكلمة واحدة ، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم ، قال : فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير أولها زفير وآخرها شهيق ، وقال عبد الله بن مسعود : إذا أراد الله تعالى أن لا يخرج منهم أحداً يعني من جهنم غير وجوههم وألوانهم ، فيجيء الرجل من المؤمنین فيشفع ، فيقول : يا رب ، فيقول الله من عرف أحداً فليخرجه ، فيجيء الرجل من المؤمنین فينظر ، فلا يعرف أحداً فيناديه الرجل : يا فلان أنا فلان . فيقول : ما أعرفك ، قال : فعند ذلك يقولون : «ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون» فعند ذلك يقول الله تعالى : «اخشأوا فيها ولا تكلمون» فإذا قال ذلك أطبقت عليهم النار فلا يخرج منهم أحداً^(١) ؛ ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم في الدنيا وما كانوا يستهزئون بعبادة المؤمنین وأوليائه ، فقال تعالى : «إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا أئمانا فأغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخرياً أي فسخرتم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إلي «حتى أنسوكم ذكري» أي حملكم بغضهم على أن أنسىم معاملتي «وكنتم منهم تضحكون» أي من صنعهم وعبادتهم ، كما قال تعالى : «إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون» أي يلمزونهم استهزاء ؛ ثم أخبر تعالى عما جازى به أوليائه وعباده الصالحين ، فقال تعالى : «إني جزيتهم اليوم بما صبروا» أي على أذاكم لهم واستهزائكم بهم «أنهم هم الفائزون» أي جعلتهم هم الفائزين بالسعادة والسلامة والجنة والنجاة من النار .

﴿قُلْ كَمْ يَبْتَئِنُ فِي الْأَرْضِ عَدَّةَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَنَلَى الْعَاقِبِينَ ﴿١١٣﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْعَمَلِكَ الْحَقَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ .

يقول تعالى منبهاً لهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفاضوا كما فاز أوليائه المتقون : «قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين» أي كم كانت إقامتكم في الدنيا؟ «قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين» أي الحاسبين ، «قال إن لبثتم إلا قليلاً» أي مدة يسيرة على كل تقدير «لو أنكم كنتم تعلمون» أي لما آثرتم الفاني على الباقي ، ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيء ، ولا استحققتم من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة ، فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا ، وفي الحديث : «إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال : يا أهل الجنة كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، قال : لنعم ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم ، رحمتي ورضواني وجنتي امكثوا فيها خالدين مخلصين . ثم قال : يا أهل النار كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، فيقول بش ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم ، ناري وسخطي امكثوا فيها خالدين مخلصين^(٢) . وقوله تعالى : «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً» أي أفظنتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا؟ وقيل : للعبث لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب ، وإنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل «وأنكم إلينا لا ترجعون» أي لا

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود موقوفاً .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي يعقوب بن عبد الكلاعي مرفوعاً .

تعودون في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أبْحَسِبِ الْإِنْسَانَ أَنْ يَتْرَكَ سُدًى﴾ يعني هملًا، وقوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي تقدس أن يخلق شيئاً عبثاً فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم أي حسن المنظر بهي الشكل، كما قال تعالى: ﴿أُنَبِّتُنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ .

وكان آخر خطبة خطبها (عمر بن عبد العزيز) أن حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولن تتركوا سدى، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم بينكم والفصل بينكم، فخاب وخسر وشقي عبد أخرجه الله من رحمته، وحرّم جنة عرضها السماوات والأرض، ألم تعلموا أنه لا يؤمن عذاب الله غداً إلا من حذر هذا اليوم وخافه، وباع نافداً بياق، وقليلًا بكثير، وخوفاً بأمان، ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين وسيكون من بعدكم الباقين، حتى تردون إلى خير الوارثين؟ ثم إنكم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله عز وجل قد قضى نحبه، وانقضى أجله، حتى تغيبوه في صدع من الأرض، في بطن صدع غير ممهد ولا موسد، قد فارق الأحباب وياشر التراب، وواجه الحساب، مرتهن بعمله، غني عما ترك، فقير إلى ما قدم، فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء موثيقه ونزول الموت بكم؛ ثم جعل طرف رداثه على وجهه فبكى وأبكى من حوله^(١). وروى أبو نعيم عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبيه قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا ﴿أَفْحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ﴾؟ قال: فقرأنها فغنمنا وسلمنا، وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أمان أمتي من الغرق إذا ركبوا السفينة: باسم الله الملك الحق، وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون، بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم» .

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١٧٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٧٨﴾ .

يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره وعبد معه سواه، ومخبراً أن من أشرك بالله لا برهان له، أي لا دليل له على قوله، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ وهذه جملة معترضة، وجواب الشرط في قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي الله يحاسبه على ذلك؛ ثم أخير ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾: أي لديه يوم القيامة لا فلاح لهم ولا نجاة. قال قتادة: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال لرجل: «ما تعبد؟» قال: أعبد الله وكذا وكذا حتى عد أصناماً، فقال رسول الله ﷺ: «فأيهم إذا أصابك ضر فدعوته كشفه عنك؟» قال: الله عز وجل، قال: «فأيهم إذا كانت لك حاجة فدعوته أعطاكها؟» قال: الله عز وجل، قال: «فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه أم حسبت أن تغلب عليه؟» قال: أردت شكره بعبادة هؤلاء معه، فقال رسول الله ﷺ: «تعلمون ولا تعلمون»، فقال الرجل بعدما أسلم: لقيت رجلاً خصمني^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء، فالغفر إذا أطلق، معناه محو الذنب وستره عن الناس، والرحمة معناها أن يسدده ويوفقه في الأقوال والأفعال.

[آخر تفسير سورة المؤمنين، والله الحمد والمنة]

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن رجل من آل سعيد بن العاص.

(٢) قال ابن كثير: هذا مرسل من هذا الوجه وقد رواه الترمذي مستنداً.